العلاقات السوسيو ثقافية والاقتصادية مع دول الساحل وأثرها على ظاهرة الهجرة بأدرار

أ.د لعلى بوكميش/ جامعة أدرار
أ. شياخ باية/ جامعة أدرار

ملخص:
ينتقل الأفراد من مكان إلى آخر حاملين متاعهم وأحلامهم، واهم من ذلك يحملون ثقافتهم المشحونة بقيمهم وأعرافهم وتقاليدهم التي نشئوا عليها داخل مجتمعاتهم. وباستقرارهم في مجتمع جديد يتم إعادة إنتاج مجتمعهم الأصلي ، إلا انه يتم التلاقح في ما بين الثقافة الوافدة والمحلية، إلى جانب الممارسات والتفاعلات الاجتماعية الأخرى التي تستدعيها قيام تجمعات بشرية .
وجد المهاجر من دول الساحل مناخا ملائما لاستقراره النسبي بولاية أدرار نظرا للتشابه الطبيعي و الاجتماعي، لبلده الأصلي وقدرته على التكيف السريع نظرا لطبيعة التركيبة البشرية ومكوناتها الديمغرافية والثقافية والتي تشكلت عبر التاريخ المشترك وذلك نظرا للقرب الجغرافي لأدرار كونها ولاية حدودية مفتوحة على دول الساحل.
تحاول هذه المداخلة أن تسلط الضوء على أهم العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية مع دول الساحل وكيف أن مظاهر هذه العلاقة أثر وسهل عملية التنقل واستقبال المهاجرين وتماهيهم اجتماعيا نظرا لان العوامل السوسيو ثقافية واقتصادية لم تكن وليدة الحاضر وإنما هي ضاربة في التاريخ.
ولعرض ذلك نتبع الخطة التالية:العلاقات الاجتماعية والمتمثلة في المصاهرة كنموذج العلاقات الثقافية والمتمثلة في المظاهر الثقافية من رحلات علمية، الفلكلور، اللباس، الأكل ... العلاقات الاقتصادية من مقايضة، تجارة... و خاتمة.

---

* يقصد بدول الساحل الدول الواقعة جنوب الصحراء.

المداخلة:

1- **العلاقات الاجتماعية:** تعد التلاحمات الاجتماعية عن طريق التزاوج والتصاهر من أهم العلاقات الاجتماعية التي أثرت على ظاهرة الهجرة وغذتها، حيث نجد امتدادات لعائلات كثيرة من الجنوب الجزائري وفي الضفة الأخرى من الحدود، وقد نتجت هذه المصاهرة منذ القديم واستمرت في كل مرحلة من مراحل التاريخ الجزائري فتنقل التجار والعلماء وبقائهم لشهور وسنوات في المناطق التي يصلون إليها إما بغرض المتاجرة أو نشر العلم أدى بهم إلى الاستقرار النسبي مما أدى بهم إلى المصاهرة مع أهل المنطقة المتواجدين فيها وعند العودة يعودون بعائلاتهم الجديدة إلى مناطقهم وأحيانا يتركونهم هناك وتبقى العلاقات الأسرية قائمة،وأغلب العائدين يجلبون معهم خدم كذلك،وهؤلاء بدورهم يؤسسون أسر.فنتج عن هذه المصاهرة والتزاوج امتدادات لعائلات كثيرة قسم منها يوجد في الجنوب الجزائري وآخرى في الضفة الآخرى، وأذكر على سبيل المثال بعض الأسماء مثل "الانصاري" وتسمى في الضفة الأخرى "بكلنصر"، "العقباوي"، "البرابيش"، "البكاي"، و"الكنتاوين" نسبة الى "سيد المختار الكنتي" يقول عنها الدكتور مصطفى أبو ضيف، «كانت هناك قبيلة عربية واحدة لها اثر عظيم في اسلام الزنوج في منطقة الصحراء، ومنطقة النيجر الوسطى وتلك هي قبيلة "كنتة" التي هاجرت في القرن التاسع هجري من موطنها بتوات إلى أطراف تمبكتو»1.ما سبق كان أسماء لبعض القبائل العربية وهناك قبائل خليط ما بين قبائل عربية وآزاودية أو تارقية مثل قبائل "ايدنان"، كما نجد امتدادات لقبائل تارقية خالصة في الضفتين مثل أشراف التوارق والمعروفة بقبائل "الايفوغاس"، و"ايلمدن"، إلى جانب قبائل "ارقنتة" والتي تتكون من عائلات كبيرة مثل ،"ابزو"، "طاطي"، و"كلغلغ"، و "بربري"... بالإضافة إلى الاتواج.ومن القبائل التي نجد لها امتدادات في الجنوب الجزائري كخلفية اجتماعية هي تلك القبائل التي مارست المهن، كالخياطة والحدادة ومن بينها قبائل"ابوخان" و"امغادن" بالإضافة إلى قبيلة "الدوسحاق" وهي قبائل تختص في الرعي وتربية المواشي 2.

1- عباس عبد الله،التاثيرات الحضارية لمنطقة توات في بلاد السودان الغربي،جامعة الجزائر،1997/1998 ص 68.

2- المعلومات بناءا على مقابلة مع " شياخ محمد" وقد اجرى مذكرة ميدانية بالمنطقة حول "الزواج العرفي وتبعاته الاجتماعية"دراسة ميدانية ببرج باجي المختار الحدودية.

لذلك نجد أن توزيع القرابة عند بعض سكان أدرار كوجود أعمام بالجزائر وأخوال بالدول المجاورة أو العكس، أدى إلى اعتبار الحدود وهم و الأراضي لها امتداد واحد بامتداد العلاقات القرابية وهذا ما

يذكره الدكتور "رمضان حينونيي" في تقرير له يحمل عنوان "الهجرة الافريقية غير الشرعية و أثرها على التركيبة الاجتماعية في تمنراست"« وشائج القرابى بين الأسر المشتركة عن طريق الزواج بين جنوب الجزائر وشمال مالي والنيجر، ويترتب هن ذلك ما ورد في أحد التقارير
للدرك الوطني،كون العشائر لا تعترف بالحدود السياسية الفاصلة بين الدول وترى في اختراقها امرا مشروع 1». ومنه بالنسبة لافراد المجتمع ، أن ازور خال أو عم لي في تمبكتو أو غاو،وجب استخراج جواز سفر لذلك يعد امرا غريب،لان "تمبكتو" "وغاو" في الذاكرة الشعبية امتداد للجزائر كذلك ولا يتصور أنه سيطلق على القادم من هناك مهاجرا غير شرعي.
2- العلاقات الثقافية: وللوقوف عند مظاهر هذه العلاقة سأقف عند دور الزوايا وانتقال العلماء الى دول الساحل لنشر الاسلام وتأسيس الزوايا هناك بالاضافة الى مظاهر الفلكلور أو التراث الشفهي من احتفال ومأكل وملبس، بالاضافة الى التراث المادي وأقصد به هنا العمارة التواتية وتأثرها بالعمارة الافريقية من حيث الشكل والمواد المستعملة في البناء.

-الزوايا: عبارة عن مؤسسات لتحفيظ القرآن والتعليم ولإقامة الصلاة، إلى جانب أهدافها الدينية و التعليمية كانت تؤدي خدمات اجتماعية متعددة ..... تشبه خدمات وزارة الشؤون الدينية 2، تجاوزت خدمات هذه الزوايا الحدود الجزائرية وتعدتها إلى الحواضر المجاورة فبالإضافة إلى نشر الإسلام بالدول الإفريقية ساهمت أيضا في فك النزاعات ولم الشمل 3 .

1-حينوني رمضان، **الهجرة الافريقية غير الشرعية وأثرها على التركيبة الاجتماعية في تمنراست**،
منتدى رحاب الكلمة،2003،ص 2
2- فرج محمود فرج ،**إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر ميلاديين**، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر، 2007. ص 121 .
3- وزارة الثقافة ،**أدرار درة الواحات و القصور** ، محافظة المهرجان الثقافي المحلي للفنون و الثقافات الشعبية أدرار،ص 37.

كما تعتبر الزوايا ملجأ من لا ملجأ له ولا سكن له، اذ توفر هذه المؤسسة الدينية والاجتماعية المأوى و المأكل مما يجعل الكثير يلجأ اليها حتى وان لم تكن نواياه التعلم،فنجد لزوايا امتدادات في دول الساحل نتيجة وحدة مريديها على المذهب أو الشيخ أو الطريقة ،حيث ساهمت الطرق الصوفية مساهمة محسوسة في تكريس التواصل الجزائري الإفريقي وتبرير مقوماته التاريخية والاجتماعية والدينية

والثقافية والاقتصادية والامنية 1. وهذا ما وطد العلاقة فيما بيـن الأفـراد وعزز تنقلاتهم، حيث يضيف "آل الشيخ"« تتشابه المقررات الدراسـية اللسـانية منهـا والدينيـة فـي كـل المراكـز التعليميـة شـمال وجنـوب الصـحراء تقـرأ فـي الجزائـر مـا يقـرأه الطـالب فـي "ولاتـة" و"شنفيط" بمورتانيا، و"تمبكتو"، و"قصرالشيخ"، و"سيجو" بمالي، و"أغاديس" بالنيجر ، و"كانو"،و "كاتسينا" بنيجيريا،كما تجد ثقافتهم الهامة ومعارفهم الدينية واللغوية واحدة ونتشابهة من وهران في الجزائر إلى نيجيريا في التخوم الوسطى...وهذا ما يؤكد قوة ومتانة الصلة والرابطة العضوية فيما بين الجزائر والدول الإفريقية».2

التراث الشفهي والمادي: تعد الولايات الجنوبية الجزائرية المناطق التي تعبر عن الانتماء الحضاري للجزائر إلى إفريقيا ويتمثل ذلك زيادة على الملامح ولون البشرة في الممارسات الثقافية ومظاهر الاحتفال المنسباتي سواء الاجتماعي أو الديني،ولنأخذ من الفلكلور "رقصة البارود"، و"رقصة العبيد"،وهما وجه ودلالة على التشابه فيمل يخص الأفراد الذين يمارسون هذا النوع من الرقص،بالإضافة إلى "الحضرة" و"التمديل" والألوان المستعملة،والأدوات، بل تجاوز التشابه كذلك في الإيقاع ،كما يدل التشابه في اللباس على مدى تمازج وتفاعل فيما بين أفراد الولايات الجنوبية و أفراد دول الساحل،ولبس "البازان" للمرأة والرجل كلباس تقليدي وانتشا الحرفيين الممارسين لخياطته والإصرار على الحفاظ على ألوانه ورموزه دليل على ذلك، بالإضافة إلى أنواع الأكلات والاشربة.

العمارة: تعـد نمـط العمـارة بـأدرار والمـواد المسـتعملة فيهـا خاصـة بالنسبة للشكل والمواد المستعملة على مدى التمازج الحضاري المادي فيما بين الولايات الجنوبية ودول الساحل

2-1- آل الشيخ حبيب الله عمر، **مبرارت التواصل الافريقي،** ملتقى التواصل الجزائري الافريقي، بأدرار، 5-7 نوفمبر 2001.ص ص 5-3.

الساحل،حيث تتخذ العمارة بتوات أشكال العمارة الإفريقية "والجامعـة كصرح معماري دليل على ذلك حيث رعي في تصميمه البعـد الإفريقـي مـن حيـث الشـكل واللـون «ومـن سـمات العمـارة الإفريقيـة الشـكل المخروطي والهرمي للأبراج والأضرحة،وقد تأثرت العمارة القصورية

بالعمارة السودانية نتيجة التلاقحات الحضارية الناتجة آنذاك عن الحركة التجارية الدءوبة بين الحضارات الإفريقية والقصور الصحراوية».1

العلاقات الاقتصادية: لعب الموقع الاستراتيجي لأدرار دورا هاما في المبادلات الاقتصادية فيما بين الجزائر ودول الساحل قديما وحديثا،حيث كان مركزا تجاريا ونقطة عبور القوافل ذهابا وإيابا، وهذا ما يجعلني أعرض أهم الطرق التجارية الرابطة بين أدرار ودول الساحل، وذلك لأن الطرق هي الشريان الناقل والمنشط للحركة التجارية.

1- تياقة الصديق، نمط العمارة القصورية في ظل مراحل وجود الاستيطان البشري في اقليم توات، مجلة الحقيقة،العدد 25 ، 2013 ، ص 364.

الطرق التجارية من والى توات-شمالا وجنوبا-

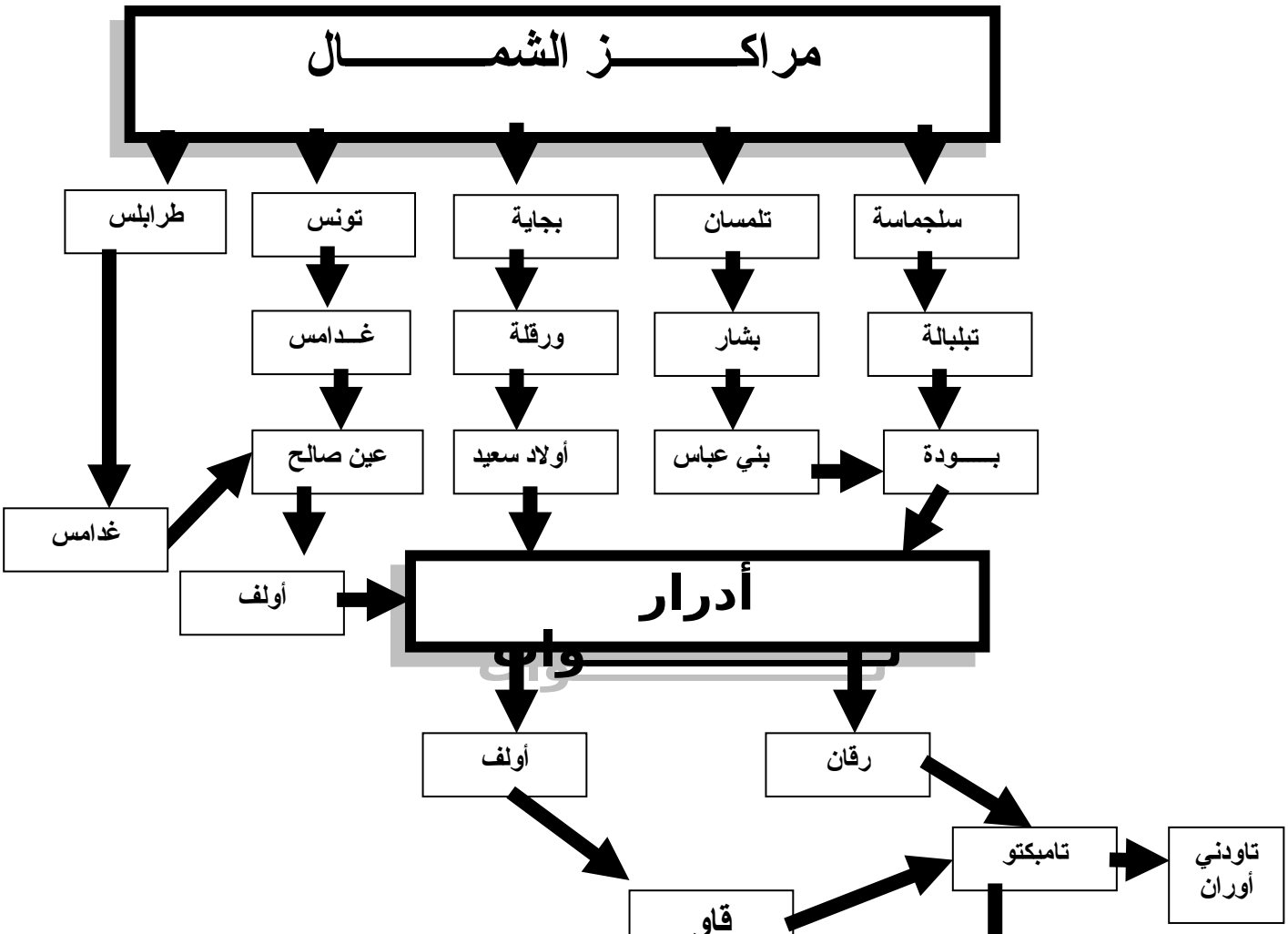

ومن أهم المبادلات التجارية التي كانت ومازالت تتم ما بين أدرار ودول الساحل، ما يعرف بنظام المقايضة وهو نظام قديم ظهر قبل البيع والشراء بمادة بمادة إن أسعفك الوجود،كان هذا النظام ذائع قديما ويتم التعامل به حديثا فيما بين الأربع ولايات جنوبية(أدرار، تمنراست، إليزي، بإطلاق التبادل الوزاري المشترك الصادر بـ والنيجر، العمل بنظام المقايضة مع الولايات المذكورة أعلاه 1.بمبادلة المنتجات الزراعية الـ دول الساحل وهـ بين أدرار ودول الساحل.

*- من إعداد الباحثة،المصدر دليل ولاية أدرار.

الزراعة: وسنخصص هنا الحديث عن الفقارة أو نظام السـقي أنتجـت الفقارة وكيفية استغلالها علاقات اجتماعية متنوعة حسب موقع كل فئة مـن السـلم الاجتمـاعي و هـذه العلاقـة المتداخلـة يمكـن التعـبير عنهـا

بالعلاقة السوسيوإقتصادية، فاستخراج المياه نتـج عنـه جماعـة سـميت بجماعـة الفقـارة، وهـي المالكـة للمـاء، و "جماعـة الحـل والربـط"، و الجماعة الثالثة التي أنشئت الفقارات بقوة عملها وهي الفئة الـتي تقـع في أسفل سلم الاجتماعي 2.وتحليـل هـذه العلاقـة مـن حيـث التركيبـة البشرية يؤدي بنا إلى القول بأن هذه العلاقة كانت تتم ما بيـن السـكان المحليين والمجلوبين مـن بلاد السـودان(دول السـاحل)، ومـازلت هـذه العلاقة قائمة حديثا وبشكل آخر ما بين العمالة المتكونة من المهاجرين شرعيين أو غي شرعيين، نظرا لقبول هذه الفئات بالعمل وبثمـن زهيـد لجل الأعمال التي لا يقبل عليها السكان المحلييـن مثـل بعـض الحـرف كالحياكـة، والحـدادة، والصـناعات الحديديـة كالخنـاجر وبعـض الأوانـي والأدوات المستعملة محليا 3.

1-بلعتروس محمد، **أثر المتغيرات الاقتصادية العالمية على نظام المقايضو حاضرا ومستقبلا**، ملتقى التواصل الجزائري الافريقي،أدرار 5-7 نوفمبر 2001.ص 8.

2- مقدم مبروك ،**مدخل مونوغرافي في المجتمع التواتي** ،ج 1،دار هومة،ب ب،ب ت ،ص 144.

3 -مطير سعد غيث أحمد،الثقافة العربية الاسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي، دار المدار الاسلامي، لبنان 2005.ص 366.

خاتمة: ستبقى العلاقات السوسيو ثقافية والاقتصادية من ضمن أهم العوامل التي تؤدي بالمهاجر إلى المغامرة وترك بلده الأصلي والتنقل إلى بلد آخر، حاولنا من خلال هذه المداخلة إبراز هذه العناصر الثلاثة: العوامل الاجتماعية، الثقافية، الاقتصادية كيف أنها كانت عوامل قوية في تعزيز ظاهرة الهجرة بأدرار وذلك للأسباب التالية:

- **العلاقات التاريخية التي ربطت إقليم توات ببلاد السودان، قديما عند تنقل العلماء لنشر الإسلام ، أو حركة التجار ذهابا وإيابا، والطرق الصوفية وحركة مريديها التي مازلت إلى أللآن، أما حديثا فوحدة المستعمر الذي أعتبر دول الساحل امتداد استراتيجي للجزائر، واعتبرت الجزائر دول الساحل منطلق لبسط السيادة على كامل التراب الوطني ودحض نظرية فصل الصحراء عن الشمال، واتخاذ الجبهة الغربية بمالي كقاعدة لذلك، وواقع الحال والظروف الأمنية الحالية تؤكد العلاقات التاريخية ووحدة المشكل ووحدة إيجاد الحل.**
- **المصاهرة والتزاوج الذي عزز وحدة النسيج الديمغرافي الذي له امتدادات في أدرار و دول الساحل، حيث نجد العديد من القبائل والأسر لها أصول وامتدادات في الجزائر ودول الساحل، والتنقل والزيارات مابين العائلات وثق الصلة والمعرفة المكانية والاجتماعية لكلا الطرفين المتواجدين على الجهتين(الجزائر ودول الساحل) مما جعل الامتداد الجغرافي أمر طبيعي نتيجة لذلك.**
- **التشابه الثقافي المادي والشفوي للتركيبة السكانية سهل عملية تكيف المهاجر وتماهييه مع السكان المحليين، بالاضافة لكون شريحة هامة من السكان المحليين تحسن بعض لهجات دول الساحل كالهوسة والبمبارية...**
- **كان للعامل الاقتصادي قديما وحديثا دور محوري في تنامي هذه الظاهرة بأدرار نظرا لتشابه أذواق المستهلك المحلي والمهاجر القادم من دول الساحل، بالإضافة إلى التكامل في المبادلات التجارية والزراعية، والحاجة الماسة للعمالة التي توظف في إقامة المشاريع التنموية، من جهة استعداد هذه العمالة للعمل بثمن زهيد.**

قائمة المراجع:

1-آل الشيخ حبيب الله عمر**، مبرارت التواصل الافريقي،**ملتقى التواصل الجزائري الافريقي،بأدرار،5-7 نوفمبر 2001.

2- بلعتروس محمد**، أثر المتغيرات الاقتصادية العالمية على نظام المقايضو حاضرا ومستقبلا،** ملتقى التواصل الجزائري الافريقي،أدرار 5-7 نوفمبر 2001**.**

3- تياقة الصديق، **نمط العمارة القصورية في ظل مراحل وجود الاستيطان البشري في اقليم توات**، مجلة الحقيقة، العدد 25، 2013.

3- فرج محمـود فـرج ،**إقليم تـوات خلال القرنيـن الثـامن عشـر و التاسـع عشـر ميلادييـن،** ديـوان المطبوعات الجامعية،الجزائر، 2007.

4- عباس عبد الله، **التاثيرات الحضارية لمنطقة توات في بلاد السودان الغربي**،جامعة الجزائر، 1997/1998.

5-مطير سعد غيث أحمد**، الثقافة العربية الاسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي،** دار المدار الاسلامين لبنان، 2005.

6-- مقدم مبروك ،**مدخل مونوغرافي في المجتمع التواتي** ،ج 1،دار هومة،ب ب،ب ت .

8- وزارة الثقافة**، أدرار درة الواحات و القصور** ، محافظة المهرجان الثقافي المحلي للفنون و الثقافات الشعبية أدرار.